الرجل الأخير

هو ذا الانفجار
فلينظر الجنس البشرى
ولتفتح الكائنات أبوابها
ليدخل ملك الحقيقة .
هو ذا صقر أحزانك
جهاراً ، في حضرة الباطن والظاهر
يَسْلَحُ الخيبة والاحتقار
على تماثيل الحرية وانصاب الاستقلال
في ساحات الأرض كلها .

وهذا أنت
وجهاً لوجه إزاء الموت .
الآن ،
في وهج القذائف وشرر الأسنان المغلوبة على أمرها
اصبح لديك متّسع من التحلي بالصبر
فلنتصارح كما يليق بالروح والجسد .
الآن تسقط ساعات الجدران
برقاصاتها التعيسة
ذات الأجل المُسمى
الآن تخلخل الزوبعة الصافية
نظام اللوحات الهائلة
من «اللوڤر» حتى «الارميتاج»
(حاذر، الدبابة قريبة جداً
سدد جيداً) .
لن تسقط في الفخ
لن تؤخذ بالمهاترات والتخمينات
أنت الرجل الأخير

الرجل العاقل الأخير
ولا يليق بالنضج الكامل
ان يتلعثم إزاء النماذج المختبرة
« الملدوغ يخشى جرة الحبل »
لكن حبالاً لا تحصى
تتدلى باتجاه عنقك المستحكم
خلف الكوفية المتسخة بالغضب

(لا تنسى سناج القذائف العنقودية)

كان بودى أن أعلن إدانتي :
« أيها الأحياء
خُذوا أكاليل زهوركم
نحن الموتى
أمضَّنا الجوع
وعلينا أن نرهن حاسة الشم
في سوق الأكاذيب الكبرى
أيها الموتى
منذا يسترد الرهان

من أجلكم ؟ »
كان بودي أن أجرِّب مجريات أخرى
بيد ان خبراء الارصاد الجوية
حذَّروا من تقلبات الطقس والأمزجة
حذَّروا من التقاويم ومضاعفات « الأنيميا »
أعرفك أخاً شقيقاً للصواعق
تخلط الأعوام مثل ورق اللعب
وتفلش سرائرك على المائدة
حتى يروا ويعتبروا
أعرفك
لا بأس بإطلالة أخيرة نحو الزهور البرية
المنطوية على اعتباراتها الخاصة
نحو الأعشاب المتطفلة السائبة
في حدائق المنازل المدمرة حديثاً
لا باس بجرعة ماء ساخن آسن
وإني لأشمّ مذاقه من هنا
من وراء صخرتي هذه

الموقع الأخير للايمان بك .
لم تولد بعد آلة الكبرياء
وهذا مجدك
أيها الحد الفاصل
بين الأقلام والصواريخ الموجهة
أما زيتونتك
المضافة حديثاً إلى حديقة الغُزاة
أما عظام الأجداد
المطحونة مرة أخرى تحت شفرات « البلدوزر »
أما القنطرة الباقية
قوس قزح لسماء غربتك
أما ألواح الصبار غير المصدَّقة
أما أنا
فحزنك الذي ما بعده حزن .
هكذا إذن
يتجسَّد باطل الأباطيل في الوردة الإصطناعية
آخ الوردة المسمومة

آخ . الدجل ، التزوير ،
الرياء ، النفاق ، التشويه ، التمثيل
التمثيل بالجثث
التمثيل بالتاريخ
وما من سميع
غير شراييناك المفرقعة
قنابلك الموقوتة
عذابك المستحيل
عصيانك المندلع في هشيم الخرافات
سبحان دمك
سبحان كلماتك التي لن تقولها
أيها المتشرد بلا حدود
في سحابة تحفظ عن ظهر قلب
تقاويم البرق والرعد والمطر
في الغرفة الصغيرة
في المناخ غير الصحي
تفقد سنبلتك قدرتها على التماسك

وعلى حين غرة
تفخّ مكبرات الصوت
تقتحم الأسماء المستعارة غرفة نومك
يرتفع ناووسك على الأصابع
بين التراتيل القادمة
في صف طويل من الأسرى المهانين
تقلّب ناظريك في الوجوه المحتشدة
فلا تعرف أحداً.
أنت لا تطلب خبزك كفاف يومك
تجرؤ على بُعد النظر
فيعاقبونك
أيها الأبله . أيها العاقل الأخير
كيف تتطاول على مجريات الأمور ؟
عبر قرون الحسرة
عبر ركام المعطيات الملفقة
رفعتَ يدك
أطلقتَ تهديداتك اليائسة

مدركاً ان شمعة واحدة
لا تضيء هذا الليل
فلتنطلق صيحة اللهب
ولتنطلق عنقاء أصابعك المشتعلة
ملء صقيع الغربة

(لا تؤاخذ أمّنا العمياء
انها تنتظر صورتك .)

في القيلولة الخضراء تحت شجرة السلام يمضغ الغزال سعادته
الحنس البشري يخلّد المنظر
« بكاميراته » ولوحات أطفاله
أما أنت فوحدك تفكّر حزيناً :
« لو تعلم أيها الغزال لو تعلم
ان لحمك سيُفرم على خشبة
من جذع هذه الشجرة
لو تعلمين آه لو تعلمين
أيتها الشجرة
ان جذعك سيُلطخ بدم البراءة . »

وحدك تفكّر حزيناً
فلا بد لي من تذكيرك
« حتى في العتمة الحالكة
يجد الإنسان طريقه في غرف منزله
في العتمة الحالكة
يلتف على المقاعد
في العتمة الحالكه
يلمس برفق شديد
حافة السرير المظلم
أمّا السكين المتربصة في الركن
بالقبضة المتسلِّلة
عبر النافذة الغدارة
فهذه مسألة لا يستطيع الغزال أخذها بالحسبان . »
لنعترفْ !
لن يتغير شيء على الإطلاق
في اللحظة القادمة
لنعترفْ !

في اللحظة القادمة
يتغيرُ كل شيء .
فلنستجمع ما لدينا من جرأة
في مواجهة موتنا المنطقي
برباطة جأش تليق بالبرق
وتكفي لاغاظة العدو والصديق .
تحضرني الآن كلمة « ملفات »
عبارة « الجلسة الاستثنائية »
والرغبة الجامحة في بكاء أصم
على قلبك الباكي .
انها السعادة الوحيدة المُتاحة
في اللحظة القادمة على الأقل

(لم تلمحك الدباية
انها تبتعد بعض الشيء)

أما أنت فلن تتخلى عن حذرك
لم يبق لك شيء تتخلى عنه
سوى ذلك البرعم الأحمر

خلف الإسمنت المُسلَّح
في قلبك الباكي بين جدران الرخام البارد
الرخام الممتقع الرطب بعض الشيء .
أمَّا بالنسبة لي
فلا شيء لديَّ اتشبث به
غير الرغبة الحارقة
في البكاء على قلبك
ها هم مرة أخرى يخرجون إليك
مولعين بالتذكارات المعطوبة
يخرجون إليك
من شرخ الأضرحة
وقد عطروا أنيابهم
بمسك الخطيئة الأولى في رماد أجدادك
انهم يخرجون
خفافاً جارحين
ليطبعوا أكفّهم المغموسة في الدم
على أجنحة الملائكة الأغبياء

على رئتك المهشمة الأضلاع
على زجاج « الأمم المتحدة »
على جبين أمّك المغضَّن بالثكل والحوقلات .
هذا شأنهم
منذ طوى النسيان مذبحة السنونوات والنرجس البري
منذ تمت الصفقة بلا فضائح
وتجشأت الآلهة المتخومة
بلحوم أطفالك المذبوحين من الوريد إلى الوريد
جهاراً تحت الشمس
تحت هذه الشمس
هذه الشمس
انني لأعلق على جدران قفصي الصدري
صور جثتك
المنشورة بتلذذ فظيع
على الصفحات الأولى من صحف اللصوص القتلة .
أيَّة فاكهة ملغومة تحملها هذه الأشجار
أيَّة ألغام في الفكاهات

أيَّة أشجار غير مبررة

الغابة ؟

إذن الوحوش

لا منطق على الإطلاق

في هذه الموازنات المريبة

وانك لتكاد تصرخ :

كم كنت مصيباً يا «دون كيشوت» .

(المدفعية الثقيلة

تقطع أنفاس الأطفال الرتيبة

في بسملة الفجر الرائق

كعيني طفل مرصود للموت

قرباناً للمدفعية الثقيلة ..)

انهم يربطون دمك بجدول الغلاء

يطالبونك بالتعايش السلمي مع الحرب

بالموت قبل إعداد الحقائب

أمَّا أنت

فتهب ابتسامتك حريتها المطلقة .

بلا مؤشر مقنع

بلا دليل
ان تطمئن بهذا القدر
إلى خبايا الحقائب الدبلوماسية
ان تثق بضمير الفولاذ
وروتين كلمة الشرف
انها المجازفة عينها :
ان تلقي بكل مدخراتك في الصفقة
زوجك هي المرأة الوحيدة
التي باعت حليها
لتشتري لك حلما
وشالاً من الصوف
يُدفيء عنقك المطلوب حياً أو ميتاً
في ليالي العالم القارسة .
السيدات الأخريات
يكتفين برفع التلفون
إلى أفق الأقراط الماسيّة الجذلة
كلمتان أنيقتان تليقان بأحمر « ماكس فاكتور »

ضحكة واعدة

وتتدفق البرقيات

وتزدحم أجهزة التلكس

بالصيحات المطالبة بإعدامك

رمياً بالغربة أو « بالنابالم »

أيها الرجل الوحيد

أيها الأخير العاقل

ها أنت وجهاً لوجه إزاء العدالة الأخيرة

وما من قضاة

هل ثمة جريمة ،

شارك فيها هذا القدر الهائل من البشر والأشياء

كجريمة التعجُّب لوجودك ؟

إني أراك

تخاطب نفسك كعجوز خرف

تنفث دخان سيجارتك

في عيون العالم المحدِّقة بك

سوراً هائلاً من الزجاج .

إنني اسمعك
مفضياً بأسرارك الرزينة
للوردة العائمة على حمأ قلبك
صادعاً بالحقيقة المدمرة ببساطتها :
« أيها الأبرص
لا شفاء لك عندي
أتمنى لك الشفاء
أيها المقعد
لن أقول لك قُم وامشِ
أهديك عكازاً
أيها الميت
تعازينا الحارة
إلى الأهل والأقرباء
في البلاد والخارج »
تحدثنا عن الألوان
قلتُ: « النصوع جواد طليق »
قلت: « المعضلة الليلك »

ثم سألتَ ببراءة فاجعة
« ما لون الآلهة ؟ »
الألوان إذن هي الدليل
هل ثمة من سبيل مهما يكن
نحو التعايش
نحو شكل ما من التعايش ؟
هل ثمة من سبيل
نحو ما يشبه الألوان ،
ما دام الأصل ميئوساً منه
تحت وطأة هذا العمى الساحق ؟
أقول لك ؛
(لحظة ، قد يهدأ القصف قليلاً .)
أقول لك :
ان الطباع قابلة للمساومة
فلا ثبوت في شيء
المهم دائماً وأبداً
هو السعي الحثيث المخلص الواثق

نحو شكل ما من أشكال التعايش مع الألوان
هل أستطيع استعمال تعبير « التماوت » أيضاً ؟
نحن نحب المدن الكبرى
غربتنا ليست دليلا
إنما هذه هي الحقيقة
وعليه ، نحبّ « بيروت » و « روما »
وحاضرة « الفاتيكان »
حيث تندلق الإيطالية على جراح المسيح
مثل زيت الزيتون الصافي .
وأصارحك بانني لم أفكر بالقِبْلة
في أثناء تجوالي العبثي بين أضرحة البابوات
إنما ابتسمت دون اعتبار لقداسة المكان
حيث رأيت « الدوتشي موسوليني »
قائماً على الشرفة الضيقة القبيحة
مطلقا قذائف لعابه
من رأسه المضحك
مشيراً بقرف إلى المواطن ميشيلانجلو

ان « واصِلْ عملك بصمت أيها الدهَّان المعتوه ا »

(بالمناسبة اين تلقيت تدريبك العسكري ؟)

اجتماعات ، اجتماعات ، اجتماعات

كأنما أستعير قلب الأخ «هملت»

ذلك الأمير المُهان أولاً وأخيراً

قرارات ، قرارات ، قرارات

كأنما أهين النملة

كأنما استخف باللقاح السري

ذلك الجندي المجهول ..

وحين يخلع الوطن طاقية الإخفاء تصبح أنت وزيراً للألوان

انني لأقترح عليك الآن

في حضرة الموت الصادق الوقور

ان نقيم على باب وزارتك

تمثالاً ضخماً

لتكريم غبار الطلع .

(كيف تميز بين إف ـ ١٥ وشقيقتها إف ـ ١٦ ؟)

أيها المجنون يا نبي العقلاء

تربَّت بين الصُّدف
الشرفات المضروبة آيلة للسقوط
كل الطرق غير سالكة
وانني لأستثني مسرب الفرح الخطير
بين دمعتي وبين البرعم الأحمر
على فوهة قلبك .
لا أسعى لإحراجك
لا أرمي إلى إهانة رجائك الأخير
حين أستذكر (الآن في هذه الزاوية الخانقة)
معادلة النفط = « تاباك آفتر شيف ».
كنت طيِّب القلب
لم تصدقني
لم تصدق هواجسك الهائمة على وجهها
مثل سمكة قرش شرهة
فى مياه الحزن العميقة .
يا فتى النعناع والحبق
أيها الغامض الأشد وضوحاً من أصابعي

هل بللت شفتيك المشققتين بالغضب ؟
هل تركت لأمنا المنتظرة
صورتك ذات الإبتسامة الفجائية ؟
يا حبي يا أخي
العواصم مشغولة
بميلاد ولي العهد
بمباريات كرة القدم
بالصحف اليومية
الماضية فوراً
من المطبعة إلى أكشاك الساندوتشات
إلى باعة المقشرات الطازجة
عند باب السيرك .
يا علّتي يا بلسمي الوحيد
انني مريض من أجلك
مريض من أجل حذائك العسكرى
مريض من أجل كوفيتك
وانني لأتوب عن الشجن

أغتسل من الرعونة
أتصبب خجلاً وتفاؤلاً
أمام عروق يديك الفتيتين
متمنياً لو كان لي شرف موتك الطقسي
موتك الشهم
الذي يمد يديه القويتين
لينتشل الحياة
من مستنقع الخيبات الشاملة ..
قاعة الديسكو جاهزة يا حبيبي
فماذا أعددت للمؤتمر الصحفي ؟
أية تسلية تدلي بها للرأي العام
في ذكرى انطلاقتك المرعبة نحو البدء ؟
كيف آخيت بين جنازتك المهيبة
وبين حفل زفاف القرابين
أيها الممهَّد للأسف
بمناسبة وبدون مناسبة
ها أنت تتولى أمر الأشواق

بما يليق بالطيور المهاجرة
ها أنت تنطلق على صهوة جوادك الأبيض
راضياً مرضياً
فى حقول عباد الشمس
فماذا ظل من التوقعات
للجماهير المحتشدة إزاء معجزتك ؟
بوركت الصواعق القادمة بالنور
لنجدة براعم العتمة
ولك المجد
أيها الواقف بين الأرض والسماء
سارية للصبوات
نصباً تذكارياً للوجد الآدمي

أيها السيد المحترم
شيء ما يستدعى الحاسة السادسة
حتى يراعى ضبط المقادير
ثم تُفتح الفُرجة المواتية

فيتدفق بلا نهاية
نور الحواس الخمس ..
أيها الصعلوك الوحيد
لكم خيَّبتَ الحاسبات الالكترونية
لكم استعصى قياس حشرجاتك المباغتة
في مناسبات الشعوب المعدة سلفاً
لكم فاجأت العالم
بدورتك الدموية ..
إذن هذا هو الوضع.
عرب بلا مراوح
يهود بلا يهود
عرب بلا عرب
وثمة رواد المقهى
على حافة كوكب مفقود
يرشقون ناسوتهم
في حُمى أنغام غير مسموعة
ثمة أشجار عملاقة من البلاستيك السام

دُمى تفتح عيونها وتغمضها
وفق التقاليد المرعية
عارضات أزياء عاطلات عن العمل
فوضويون سذج
تنابلة مخادعون
قوّادون قتلة
« مافيا » تختار الرئيس المناسب
وفق معطيات البورصة وسوق المخدرات الدولية
هكذا ،
لا بد من السطو المسلح
ليلاً وبلا رحمة
لابتزاز سر الأعاصير
قسراً وبلا سقوط في محنة التردد
هكذا ،
بالضربة القاضية
بالوردة والتفاحة والحجر
الثالوث المقدس

الإله الذي لا يغادر ضحاياه

دون صلاة صغيرة ...

إنما الظروف

لقمة خبز الأولاد

الإجازات المؤجلة

الواجبات الاجتماعية

كل ذلك

ورائحة الصحف المغثية

الكتب التي لم تقرأ بعد

مذكرات الجنرالات والساسة المتقاعدين

الرسائل القلقة في صناديق البريد

المواعيد غير المؤكدة

كل ذلك

والترقب الممسك بالخناق

أفعى افريقية لا تستطيع إفلات صيدها

كل ذلك

ويأس السمكة الصغيرة

في فوضى الدوامة الهائلة
كل ذلك
والشراك التي لا تحصى
كيف تفلت ؟
ها. ماذا تظن نفسك ؟ .

هي ذي قادمة
انظر كيف اصطفتنا
انها تهوي باتجاهنا من سماء الله الواسعة
من قمة عيد المساخر الدولى
ويا لها من تحفة تكنولوجية
مثل باقة ورد رمادية
تقذفها ملائكة الرب الحقود
على أضرحة أطفالنا الموعودين
انظر
صوب جيدا
لا شيء لديّ اصوّبه

غير بروق الغضب المتفجرة في حدقتيّ
لعلها تفك الحصار المضروب على الحلم
لعلها تخلخل سدّ الأغنيات
هات يدك الحرة
اصغ معي ..
اصغ
أية معزوفة سماوية هي هذه ؟
هات يدك الحرة إلى الأبد
نحن الانفجار ..
طوبى للزيتونة المنتظرة
مغمضة عينيها الدامعتين
على معراج جسدينا في فضاء العالم
مثل ملاكين مسكينين

لحظات ونغادر العالم
لحظات ونعود إلى العالم
إلى دهر الداهرين

آمين

فلنصدع بالحقيقة

« أيها الأبرص

لا شفاء لك عندي

أتمنى لك الشفاء

أيها المقعد

لن أقول لك قم وامشِ

أهديك عكازاً

أيها الميِّت

تعازينا الحارة

إلى الاخوة والأعداء

في البلاد وفي الخارج

آميـــن .. »

(١٩٨٢/٧/١٥)